

مقدمة

أول وهلة يبدو تعبير "قبول الآخر" غريبا على الأذن ولأسباب سياسية يتسرع كثيرون في تصنيفه في خانة مساعي "علمنة" العقل المسلم، والحقيقة التي يكشف عنها التدقيق أن القضية تهتم كل من يدين بدين سماوي وأن ما يحيط بها من غموض أو سوء ظن ليس إلا نتيجة للتقاطع مع بعض الأجدات الثقافية القادمة من الخارج وهو واقع لا مفر من الاعتراف به، لكن "الحكمة ضالة المؤمن" أينما وجدها فهو أحق بها ومثل هذا التشابه أو حتى الاتفاق لا يعني رفض الدعوة لقبول الآخر، لمجرد صدورها عن غيرنا فديننا يعلمنا أن "تعرف الرجال بالحق" لا أن نعرف الحق بالرجال، بل المعيار عند التقويم ينبغي أن يكون معيارا شرعيا في المقام الأول وإنسانيا في المقام الثاني منضبطا بما أحله الله وبما حرمه.

وقبل الولوج إلى مناقشة قضية "ثقافة قبول الآخر" نلزم أنفسنا بقيد نراه موضوعيا هو ألا نناقش المفهوم تحت وطأة مشاعر محتقنة فالمثقف رائد وكما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم فإن "الرائد لا يكذب أهله"، ولا يجوز أن ينطق بما لا يراه حقا خوفا من "الناس" فالمجتهد أيا كان مجال اجتهاده لا يجوز أن يخاف أحدا إلا الله. وقد أفاض العلماء والمؤرخون قديما وحديثا في تحذير كل حامل قلم من الخوف من السلطان ولدينا تراث عظيم في هذا السياق يمكن أي يمنح كل من يرهبه سيف السلطة القدر الكافي من التسلح بالثقة في الله ومن ثم الشجاعة ليجهر بالحق غير هيب من الحاكم، غير أن الخوف من الناس كان - ولم يزل - من القيود الخطيرة على حركة الاجتهاد والتجديد ولعل خطورته تكون مضاعفة إذا أدركنا حجم التأثير الذي أصبحته تملكه وسائل الإعلام في

ثقافة قبول الآخر

الناس ومن ثم أصبح كل مجتهد يكتب ونصب عينيه - ولو بشكل مضمحل - صورته في هذه المرآة اللامعة التي يمكن أن تتحول إلى نصل حاد في أية لحظة!

بل لا نبالغ إذا قلنا إذا إن الخوف من الناس أصبح أشد وطأة من الخوف من السلطة في الكثير من القضايا السياسية والثقافية، ومن النماذج النادرة في تراثنا الفقهي الإسلامي التي تحدث فيها كاتبها عن سلطة "الجماهير" وتأثيرها في المجتهد ما كتبه العلامة للعلامة أبي إسحاق إبراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي في كتابه "الاعتصام": يقول الشاطبي في "خطبة الكتاب":

"وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويخص سؤاله بل سواه عليها، إذ التأسى في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجلبة، وبسببه تقع في المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق المؤالفة، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين".

ثم يقول: "وإنما قدمت هذه المقدمة لمعنى أذكره. وذلك أي والله الحمد لم أزل منذ فتق لفهم عقلي ووجه شطر العلم طلي، أنظر في عقلياته، وشرعياته، وأصوله وفروعه لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعاً دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والمكان، وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطري، بل خصت في لوجه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء، حتى كادت أتلف في بعض أعماقه، أو أنقطع في رفقي، التي بالأنس بما تجاسرت على ما قدر لي، غائباً عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضاً عن صد الصاد ولوم اللاتم".

ويضيف الشاطبي: "وكنيت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريباً في جمهور أهل الوقت لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب

من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدءاً في الأزمنة المتقدمة، فكيف في زماننا هذا.... فنردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفتي العوائد، ولا سيما إذا ادعى أهلها أم ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائداً بالله من ذلك، إلا أنني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في أتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغفروا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلي البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل العباوة والجهالة، وإني لو التمسيت لتلك المحدثات مخرجاً لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعث عن أهل القطن، رقى بي مرتقى صعباً وضيق علي مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن أتباع المتشابهات، لموافقات العادات، أولى من أتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول."

بل يرسم الشاطبي صورة مخيفة لسطوة "الجماهير" إذا وجدت من مجتهد ما لا يوافقها فيقول: "وربما ألما في تقييح ما وجهت إليه وجهتي بما تشتمر منه القلوب، أو مخرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكذب ويسألون عنها يوم القيامة

فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه كما يعزى إلى بعض الناس، بسبب أنني لم ألزم الدعاء بمينة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة

* * * * *

وتارة نسبت إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أنني لم ألزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في

خطيهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعبرين في أجزاء الخطب

* * * * *

وتارةً أضيف إلي القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكرهم في الخطبة، وذكرهم فيه محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارةً أحل على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أي التزمت في التكليف والفتيا الحتم على مشهور المذهب المنتزح لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب المنتزح أو في غيره وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك

* * * * *

وتارةً نسبت إلى معاداة أولياء الله، وسبب ذلك أي عاديته بعض الفقهاء المتسدين المخالفين للسنة المنتصين بزعمهم هداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارةً نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناءً منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها وهي الناجية ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم بإحسان

* * * * *

وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال.

ويروي الإمام الشاطبي عن أحد كبار الحفاظ ما عناه من هذا الباب فيقول: "فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهر عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكى عن نفسه فقال: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين،

والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعتي على ما يقوله، وتصديق قوله والشهادة له فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان سمائي موافقاً وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سمائي مخالفاً وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سمائي خارجياً وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سمائي مشبهاً وإن كان في الرؤية سمائي سالمياً وإن كان في الإيمان سمائي مرجئياً وإن كان في الأعمال سمائي قدرياً وإن كان في المعرفة سمائي كرامياً وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سمائي ناصياً وإن كان في فضائل أهل البيت سمائي رافضياً وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بما سمائي ظاهرياً وإن أجبت بغيرهما سمائي باطنياً وإن أجبت بتأويل سمائي أشعرياً وإن جحدتهما سمائي معتزلياً وإن كان في السنن مثل القراءة، سمائي شفعوياً وإن كان في القنوت سمائي حنفياً وإن كان في القرآن سمائي حنبلياً

ثقافة قبول الآخر

وان ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار - إذ ليس في الحكم والحديث محاباة - قالوا: طعن في تركيبتهم، ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئاً. وإني مستمسك بالكتاب والسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم".

ويعقب الإمام الشاطبي على هذه الحكاية بقوله: "هذا تمام الحكاية فكأنه رحمه الله تكلم على لسان الجميع. فقلما تجد عالماً مشهوراً أو فاضلاً مذكوراً، إلا وقد نبذ بهذه الأمور أو بعضها، لأن الهوى قد يداخل المخالف".

وهذه الدراسة تستهدف بحث قضية "ثقافة قبول الآخر" دونما خوف من حاكم أو محكوم وبعيدا عن السياقات الخارجية التي تجعل بعض القضايا مصدر خوف لبعض أصحاب الأقلام فقهاء كانوا أو مفكرين، فالحق أحق أن يتبع.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

والله من وراء القصد

ممدوح الشيخ

قويسنا في

العشرين من ربيع الآخر ١٤٢٨ هجرية

الثامن من مايو ٢٠٠٧ ميلادية
